

الأستاذة: لمياء عيطو

مقياس: النص الأدبي الحديث

المحاضرة موجهة لطلبة السنة الثانية دراسات لغوية (الفوج 03/02/01)

المحاضرة الرابعة: التجديد الشعري في المشرق (01)

لقد ارتبط التجديد الشعري بظهور ما يعرف بالتيار الرومانسي الذي عمل على إخراج الشعر من بوتقة القداسة الشعرية القديمة، ليواكب روح العصر ويفي بحاجات الإنسان الروحية التي تغيرت بتغير الأزمان، خصوصا إذا عُلِمَ بأن هذا العصر وسم بعصر السرعة، وهو ما جعل الشاعر يشق عصى الطاعة عن النموذج الكلاسيكي القديم ثم البحث عن حريته المفقودة من خلال إتباع سبيل المدرسة الرومانسية التي عززت فكرة الانطلاق من الذات الإنسانية وتجاربها وعمق تصوراتها التي تعود إلى الانغماس بمظاهر الطبيعة التي تعتبر الملجأ الآمن وحضن الأم الرؤوم الذي يلجأ إليه الشعراء.

لقد كان الشعر عند المدرسة الرومانسية يوافق ما قدمه ميخائيل نعيمة للتعريف بالشعر من خلال قوله: « الشعر هو غلبة النور على الظلمة، والحق على الباطل، هو ترنيمه البلبل ونوح الورق، وخرير الجدول وقصف الرعد، هو ابتسامة الطفل ودمعة الثكلى، وتورد وجنة العذراء وتجعد وجه الشيخ، هو جما البقاء وبقاء الجمال»، والملاحظ من خلال هذا التعريف أن ميخائيل نعيمة وحّد بين الشعر والطبيعة وجعلهما وجهين لعملة واحدة، ومن التكتلات الأدبية التي أعطت للشعر صورة جديدة نجد:

1- جماعة الديوان:

لقد نشأت هذه الجماعة على يد كل من عباس محمود العقاد (1889-1964)، عبد القادر المازني (1889-1949)، وعبد الرحمن شكري (1886-1946)، وقد كانت لهم وجهة نظر مختلفة للشعر حيث كان بالنسبة إليهم « تعبير عن وجدان الشاعر وذاته وحياته الباطنية، وصادرا عن نفس الشاعر وطبعه، والشعر عندهم تغلب عليه التزعة الوجدانية » والعودة إلى أحضان الطبيعة، وقد تأثر أعلام هذه المدرسة بالتزعة الرومانسية عند خليل مطران.

من الآراء التجديدية التي قام العقاد بنشرها: « رفض اتجاه المدرسة الاتباعية، والتعبير عن تجربة شعورية ذاتية، فكان الشعر بالنسبة إليهم مناجاة للروح والخيال، وتعبير عن خواطر إنسانية واعتمدوا على البعد الوجداني للشعر

وتقديس العاطفة، وآمن هؤلاء بالوحدة العضوية للقصيدية ووحدة الموضوع وسلاسة الأسلوب»، وقد كان شعار هذه الجماعة هذا البيت الشعري:

ألا يا طائر الفردوس إن الشعر وجدان

التحديد المضموني عند جماعة الديوان:

كان لشعراء الديوان تحديد نسبي من حيث تناول والمعالجة للموضوعات بصورة عامة، فتمردوا « على ضيق المعاني المتناولة ومحدودية إطارها، ووقفوا أمام استخدام الشعر في بيان الموضوعات التاريخية ورفضوا التفاهة التي غلبت على الحياة والشعر، كما رفضوا شعر المناسبات ونادوا إلى الجوهرية والخيال والعاطفة المرهفة، وعبروا عن إنسانية الشعر ولا لسانيته»، وقد ظهر ذلك في أعمالهم الشعرية التي تميزت بالجددة والحداثة.

ومن الموضوعات التي طرقها شعراء هذه الجماعة نجد:

الموضوعات الفكرية والدينية:

لقد كان لشعراء هذه الجماعة قصائد فلسفية تأملية ناقشت فكرة الدين من منظور جديد، حيث نُظر إلى جوهره الذي يحرر النفس ويسمو بها في الدنيا والآخرة. يقول عبد الرحمن شكري:

أَكْذِبُ الدِّينَ مَا يُنِيمُ قَوَى الْمَرْءِ ءَ كَمَا يُخْرِسُ الرَّيِّحُ الرِّيحَ الرَّكُودِ

إِنَّمَا الدِّينُ أَنْ تُفَكَّ عَنِ النَّفْسِ سَ مِنْ الْيَأْسِ وَالْخُمُولِ قِيُودِ

إِنَّمَا الدِّينُ أَنْ يَجِدَّ مَجْدٌ أَعْمَلُ السَّعْيِ أَوْ يَجِيدُ
مَجِيدُ

إِنَّمَا الدِّينُ قِيَامُ وَحَيَاةُ

وَعَدِيدُ وَعَدَّةُ

وَعَدِيدُ

يبين شكري من خلال هذا المقطع الشعري رفضه القاطع لفكرة الدين الخاطيء الذي يقيد الإنسان ويفرغه من

إنسانيته، ويصر على أن الدين الصحيح الحق هو الذي يبعث في الإنسان هممة السمو بالنفس، هو ليس ضعف إنما قوة

تبعث على الحياة لا الموت هو ذا الدين الذي يريده شكري. ويقدم جملة من التساؤلات الفكرية والفلسفية:

كَيْفَ يَدْرِي جَلَالََةَ النَّفْسِ غَرَّ أَرَعَجْتَهُ هَ بَوَارِقِ

وَرَعْوَدِ

كيف يدري جلاله الله غرّ _____ حرّكته _____ ضغائن
وحقود _____

في هذين البيتين ينفي شكري عن الفتى الغر معرفة جلال النفس، خصوصا إن كانت تملؤها الأحقاد والضغائن، فلا يدرك جلال الله إلا من كانت نفسه راقية نقية صافية، فكل مرحلة من الرقي تهيء الإنسان للدرجات العلا، وهو ما يجعل من شكري علما من أعلام التجديد والخروج عن النمطية والتقليد.

الموضوعات التأملية والتساؤلات الفلسفية:

يقف العقاد مسائلا نفسه عن الكون وعن الميلاد فيقول:

م _____ رأى أوّل فجر _____ في فضاء الكون
لاحا

من رأى الشمس استقلت وهي تشتت الضراحا

واستعارت من مطار ال _____ زمن السّ _____ اري جناحا

من رأى الليل ضمير _____ ا _____ أبصر النور
فباحا

باح بالكون _____ ما ازدا _____ د مع النور افتضباحا

من وعى أوّل ص _____ وت _____ أكبر الشمس فصباحا

وانتش _____ عى أوّل ع _____ رف _____ في نسيم الصباح
فاحا

م _____ رأت ذلك عي _____ ن _____ لا ولا
كان مباحا

ك _____ م تجلّى _____ عى من صباح _____ قبل أن يدعى صباحا

إن هذا المقطع يظهر على أنه نوع من الكتابة التساؤلية، اشتهر بها العقاد واختلف عن نظرائه فيها من خلال الإجابة على التساؤلات وعدم تارك باب التأويل فيها مفتوحا، وها هو ذا يتساءل عن أول من رأى الفجر الأول بعد الخلق، ومن أبصر المغيب أولا، ومن تنشق عبر الصباح، ثم يجيب بعد ذلك إجابة حاسمة لا تردد فيها بأن معرفة أول راء وأول مبصر تخرج عن القدرة البشرية وتدخل في باب الغيبات التي يكون البحث فيها غير مباح.

الموضوعات الاجتماعية والحياتية:

لقد اهتمت جماعة الديوان بقضايا المجتمع ومشكلاته، لأن رؤية الشاعر لا تنفصل عن بيئته ومجتمعه، ويقول في ذلك العقاد: « كل ما نخلع عليه من احساسنا ونفيض عليه من خيالنا ونتخلله بوعينا ونبت فيه من هواجسنا وأحلامنا ومخاوفنا هو شعر وموضوع للشعر، لأنه حياة وموضوع للحياة .. وعلى هذا الوجه يرى عابر السبيل شعرا في كل مكان إذا أراد ... يراه في البيت الذي يسكنه وفي الطريق الذي يعبره كل يوم وفي كل واجهات الدكاكين المعروضة ... لأنها كلها تمتزج بالحياة الإنسانية فهو ممتزج بالشعور الصالح للتعبير ». يقول العقاد في قصيدة الزوجة المهجورة في ميلادها:

مولـــــــــــــــــدي يــــــــــــــــوم شــــــــــــــــقــــــــــــــــائــــــــــــــــي مات في المهد رجائي
ليــــــــــــــــس في قلبــــــــــــــــي عــــــــــــــــزــــــــــــــــاء أين في الدنيا عزائي
أحــــــــــــــــسب البــــــــــــــــدر ظلامــــــــــــــــا وهو مصباح السماء

إن هذا المقطع الشعري مأخوذ من ديوان عابر السبيل الذي أجمع النقاد على تسميته بالديوان الاجتماعي، ذلك أنه ضم بين دفتيه عديد القصائد الاجتماعية التي تعالج وتمس الظواهر المنتشرة فيه، وتنتقد المجتمع الذي كان له دور كبير في تفاقمها. وها هي هذه المرأة الوحيدة تتجرع مرارة البؤس والحزن في ليل طويل بارد حتى أن مسرات الحياة أصبحت موضعا لمأساتها وتعاستها.

موضوعات تستوحي الطبيعة:

لقد جعل الشعراء من الطبيعة ملجأ وملاذا لهم يهرعون إليه هربا من الواقع المرير الحطم لآمالهم، فأخذوا من رموز الطبيعة وأسقطوها على واقعهم، وها هو ذا شكري يجعل منها مادة ذات عمق يستمد منها رموزه ومعادلاته الموضوعية، ويسقط عليها الحالات الإنسانية، فالطبيعة تشتغل في شعره « مقاما مقاربا لما يشغله موضوع الحياة والموت، كما تفوق كثيرا مقام ما يشغله موضوع الحب، ففي الطبيعة يتجلى موضوعه الحبيب: الخيال والوجدان بصورة لافتة ... وبتقدم السنين التي نجد الوقفة أمام الطبيعة تتعمق وتتخذ من ملامح المدرسة الرومانسية الغربية الشيء الكثير ».

يعالج عبد الرحمن شكري موضوعات الطبيعة معالجة فكرية، تملؤها التأملات الفلسفية الراقية ومن ذلك قصيدته صوت الليل، يقول:

ملأت الكون من نفس عميق فأسمع كل ذي قلب مفيق
وأجريت الجلال على سكون يفيض على ظلامك كالأنين

تخيّر الحروف المناسبة داخل اللفظة الواحدة، وما بين الكلمات من تناغم متخلق من سجع أو جناس أو إيقاع داخليّ أو حسن تقسيم ... إلى آخر ذلك.

كانت هناك محاولة لإسقاط الرويِّ وكتابة الشعر على قافية ثابتة ورويِّ متغيّر، وهذه المحاولة وجدت عند شكري في أكثر من موضع، ولم تظهر لا عند العقّاد ولا عند المازني، يقول في أول قصيدة له أتت بعنوان كسرى والأسيرة:

قصة ذات اعتبر_____ار آخذ بصميم اللّب يقريه الهدى

غضب الجبار كسر غضبة فمنّا من شرّه ما قد نم_____ا

غضبة ذات وعي_____د رائع ترك العرب كأطيار الع_____را

فحروف الروي جاءت على الترتيب (د،م،ر) وأما القافية فلم يحدث فيها تغيير حيث كانت على التوالي (هلهدي، قدنما، رلُعا) فاحتفظت بمتحركين بين ساكنيها فهي من نوع المتدارك ثابتة في كل الأبيات.

التجديد على مستوى بناء القصيدة:

- دعا الديوانيون قبل كل شيء إلى التزام الوحدة العضويّة في القصيدة، ونادوا إليها فكانت الوحدة سمة عامة لكل أشعارهم.

- الشعر القصصي وقد كان شكري أكثر الثلاثة صياغة في هذا الضرب، ومن نماذج ما صاغ: كسرى والسيرة، عاشق المال، والتنويم المغنطيسي، وليتني كنت إلها، والشاعر وصورة الكمال، والحاجة المكتومة، والنعمان ويوم بؤسه، والزوجة الغادرة، ونايليون والساحر المصري، وقوة الفكرة، والملك الثائر.

- الشعر الحوارى سواء أكان داخليا أو ذا طرفين، يقول المازني في قصيدته بعد الموت:

ترى يذكر الأحياء أهل المق_____ابر ويعتادهم فيها كشوق المسافر

وهل تظمأ الأم العطوف إلى ابنها إذا انتزعتها منه أيدي المق_____ادر

تقول ألا ليتها لصق أضلع_____ي كعهدي به

والنوم ملء المحاجر

أضم إلى صدري حشاشة نفسه وأملأ قلبي منه بعد الن_____واظر

فالقصيدّة تمثل حوارا نفسيا داخليا، يتساءل فيه الشاعر تساؤلات مفتوحة، وهذا الضرب من النّظم مألوف وكثير لدى الديوانيين، ولعل سببه أهم أكثروا من الشعر التأملّي والفلسفي، وهذه الطريقة النّظمية تناسب ذلك الموضوع لأنّها تتيح للشاعر عرض فرضياته وتساؤلاته.

بعض المراجع المعتمدة في المحاضرة:

- مصطفى محمد هدارة: بحوث في الأدب العربي الحديث.
- نسيب نشاوي: المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر.
- محمد عبد المنعم خفاجي: دراسات في الأدب المعاصر.
- ميخائيل نعيمة: الغربال.
- ناصر بركة: محاضرات في النص الأدبي الحديث.
- علي الأطرش: محاضرات في النص الأدبي الحديث.
- حسن علي حسن سليمان: مظاهر التجديد في الشعر الحديث.